الفصل الثانى

الدين المعاملة

● **مدخـل :**

لقد حدد رسول الاسلام ﷺ الغاية الأولى من بعثته ، والمنهاج المبين فى دعوته بقوله « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. فكان الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة ، وبذل صاحبها جهـداً كبيراً فى نشرها ومد شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم ، وانارة آفاق الكمال أمام أعينهم ، حتى يسعوا اليها على بصيرة .

والعبادات التى شرعت فى الاسلام واعتبرت أركاناً فى الايمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذى يربط الانسان بالغيوب المجهولة ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها .. كلا ، فالفرائض التى ألزم الاسلام بها كل منتسب اليه ، هى تمارين متكررة حتى يعتاد الفرد أن يحيا بأخـلاق صحيحة سليمة ، وأن يظل مستمسكاً بهـذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف . والقرآن الكريم والسنة المطهرة . يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق .

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من اقامتها ، فقال تعالى : **« وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »** . (العنكبوت : ٤٥) .

فالابعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل ، هو حقيقة الصلاة . وقد جاء فى حديث يرويه النبى ﷺ عن ربه : « انما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم

بيت مصراً على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » . (رواه البزار)

و « الزكاة » المفروضة ليست فريضة تؤخذ من الجيوب ، بل هى :

أولا — غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات .

وقد نص القرآن الكريم على الغاية من اخراج الزكاة بقوله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

(التوبة : ١٠٣)

فتنظيف النفس من أدران النقص ، والتسامى بالمجتمع الى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى .

ومن أجل ذلك وسع النبى ﷺ فى دلالة كلمة « الصدق » التى ينبغى أن يبذلها المسلم فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، واماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » . (رواه البخارى)

وكذلك شرع الاسلام « الصوم » ، فلم ينظر اليه على أنه حرمان مؤقت من الشهوات المحظورة والنزوات المنكودة : فالقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله :

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . (البقرة : ١٨٣)

وفى هذا المعنى قال الرسول ﷺ « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

(رواه البخارى)

وقد يحسب الانسان أن السفر الى البقاع المقدسة — الذى كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الاسلام على القادر — يحسب الانسان

أن أداء فريضة « الحج » من التعبدات الغيبية . وهذا خطأ ، اذ يقول الله تعالى فى الحديث عن هذه الفريضة :

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون ياأولى الألباب » . (البقرة : ١٩٧)

هذا العرض مجمل لبعض العبادات الأساسية التى أمر بها الاسلام ، وعرفت على أنها أركانه الأصلية ، نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق .. انها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها ، ولكنها تلتقى عند الغاية التى رسمها الرسول ﷺ فى قوله : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فالصلاة والصيام والزكاة والحج هى مدارج الكلام المنشود ، وروافد التطهر الذى يصون الحياة ويعلى شأنها . ولهذه السجايا الكريمة — التى ترتبط بها أو تنشأ عنها — أعطيت منزلة كبيرة فى دين الله ، فاذا لم يستفد المرء منها ما يزكى قلبه ، وينقى لبه ، ويهذب بالله وبالناس صلته ، فقد هوى [1] . بقول الله عز وجل فى محكم كتابه الكريم :

« انه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » .
(طه : ٧٤ — ٧٦)

* * *

● **لنا فى رسول أسوة حسنة :**

لقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا برسول الله ﷺ فى طيب شمائله وعريق خلاله ، فقال تعالى :

---

(١) محمد الغزالى ، **خلق المسلم** (ط ٨) . (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤) ، ص ٥ — ٧

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجـوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » . (الأحزاب : ٢١)

كان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه .. يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو قاربه لحاجة صابره ، حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول .. وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجـانب . . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه .. وكان يخالط أصحابه ، ويمازحهم ويجاريهم ويلاعب صبيانهم . ويجيب دعوة الحر والعبد والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر . وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وكان عليه الصلاة والسلام كثير السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة . وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه فصلا ، لا فضول فيه ولا تقصير . ومجلسه كان مجلس خير وحلم وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تخدش فيـه الحرم . اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، واذا مشى مشى مجتمعاً ، يعرف فى مشيته أنه غير ضجر ولا كسلان .

لقد سيقت اليه الدنيا بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها فأعرض عن زهرتها ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .

* * *

الانسان بين الخير والشر

الاسلام — كسائر رسالات السماء يعتمد فى اصلاحه العام على تهذيب النفس البشرية/الانسانية قبل كل شىء .. فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل فى أعماقها ، وغرس تعاليمه فى جوهرها حتى تستحيل

جزءاً منها .. وما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين الا لأن « النفس البشرية » كانت موضوع عملها ، ومحور نشاطها . فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فى مضطرب الحياة المتحركة ، ولا ألواناً مفتعلة بهتت على مر الأيام .. ولقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس ، فأصبحت هذه المبادىء قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية ، وتتحكم فى اتجاهاتها .

وقد ذكرت « النفس » فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات .

فقوة الدوافع الفطرية/الغريزية تقابل « النفس الأمارة بالسوء » :

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » .

(يوسف : ٥٣)

وقوة النفس الداعية تقابل « النفس الملهمة » :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ٧ — ١٠)

وقوة الضمير تقابل « النفس اللوامة » ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقروناً بيوم القيامة :

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

(القيامة : ١ — ٢)

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الأعذار :

« بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » .

(القيامة : ١٤ — ١٥)

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » . (الفجر : ٢٧ — ٣٠)

والاسلام — فى علاجه للنفس ابتغاء اصلاحها — ينظر اليها من ناحيتين : الأولى ، أن فيها فطرا طيبة ، تهفو الى الخير ، وتسر بادراكه ،

وتأسى للشر ، وتحزن من ارتكابه ، وترى فى الحق امتداد وجودها وصحة حياتها .. والثانية ، أن فيها — الى جوار ذلك — نزعات طائشة ، تشرد بها عن سواء السبيل ، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر ، ويهوى بها الى منحدر سحيق .

ولقد عمل الاسلام على اسداء المعونة الكاملة للانسان ، كى يدعم فطرته ويجلى أشقها ويسير على هديها ، وكى يتخلص — كذلك — من وساوس الاثم التى تراوده وتحاول السقوط به . وقد وصف الاسلام نفسه بأنه دين الفطرة الخالصة من هذه الشوائب كلها ، فقال تعالى فى محكم كتابه الكريم :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
(الروم : ٣٠)

وحيث يصف القرآن الانسان بالضعف والتردد والأثرة ، يذكر أن التخلص من هذه الرذائل هو عن طريق الدين ووصاياه فحسب :

« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين » .
(المعارج : ١٩ — ٢٦)

ان الاسلام يحترم الفطرة الخاصة ، ويرى تعاليمه صدى لها ، ويحذر الأهواء الجامحة ، ويقيم السدود فى وجهها . والعبادات التى أمر بها هى تدعيم للفطرة ، وترويض للهوى . ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدى رسالتها الا اذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالى والمسلك القويم (٢) :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . (التين : ٤ — ٦)

* * *

(٢) **المرجع السابق** : ص ١٩ — ٢٥

القيم والأخـــلاق فى المعاملة

ان الأخلاق فى الاسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الانسانية •• روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو انفعالية ، فردية أو اجتماعيـــة •• الا رسمت له المنهج الأمثل للســـلوك الرفيع القويم • وفيما يلى أمثلة لهذا الشمول فى مجال الفرد والمجتمع :

١ — ان من أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه :

(أ) جســـما له ضروراته وحاجاته ، مثـــل قـــول الله تعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » • (الأعراف : ٣١)

وقول الرسول ﷺ : « أن لبدنك عليك حقاً » •

(رواه الشيخان)

(ب) وعقلا له مواهبه وآفاقه ، يقول القرآن الكريم :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض •• » •

(يونس : ١٠١)

« قل انمـــا أعظكم بواحـــدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » • (سبأ : ٤٦)

(جـ) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها ، يقول تعالى :

« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها » • (الشمس : ٧ — ١٠)

٢ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع :

(أ) فى آدابه ومجاملاته ، مثل :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » • •

(النور : ٢٧)

(ب) وفى اقتصاده ومعاملاته :

« ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » • (المطففين : ١ — ٣)

(جـ) وفى سياسته وحكمه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. » . (النساء : ٥٨)

وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الاسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها ..

* * *

● **الأخلاق الفاضلة فى القرآن والسنة :**

يحث القرآن الكريم على التحلى بالأخلاق الفاضلة واتباع الأسلوب القويم ، والابتعاد عن الشر وسوء الخلق .. وسنناقش فيما يلى أهم القيم والمبادىء الخلقية التى تتضمنها المعاملة ، مع الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وتتلخص هذه المبادىء فيما يأتى :

- أدب الحديث .
- التسامح والرحمة .
- الحلم والصفح .
- العدالة .
- الصدق والأمانة .
- الوفاء والاخلاص .
- الصبر .
- الحياء .
- الاخاء .
- الاتحاد والتعاون .

أولا — أدب الحديث :

ان نعمة البيان أجل النعم التى أسبغها الله تعالى على الانسان ، وكرمه بها على سائر الخلق ، قال تعالى :

« الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان » •
(الرحمن : ١ — ٤)

وقد أوضح الاسلام كيف يستفيد الناس من هـذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد على ألسنتهم طوال يومهم طريقاً الى الخير المنشود • وقد عنى الاسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه ، لأن الكلام الصادر عن انسان ما يشير الى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرق الحديث السائدة فى جماعة ما تحكم على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها •

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الاسلام ، هما الصلاة والزكاة :

« قد أفلح المؤمنون • الذين هم فى صلاتهم خاشعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون » •
(المؤمنون : ١ — ٤)

فاذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعود لسانه الجميل من القول • والكلام الطيب العف يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً وله ثماره الطيبة •• فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم ، ويستديم صداقتهم ، ويمنع كيد الشياطين أن يوهن حبالهم ويفسد ذات بينهم • قال تعالى :

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » • (الاسراء : ٥٣)

وأما حسن الكلام مع الأعـداء فهو يطفىء خصومتهم ، ويكسر حدتهم ، أو على الأقل يوقف تطور الشر • قال تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » • (فصلت : ٣٤)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً ، أو ليصمت » • (متفق عليه)

— وعنه عن النبى صلى ﷺ قال : « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » •

(رواه البخارى)

— وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » •

(متفق عليه)

— « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » •

(رواه الطبرانى والبيهقى)

* * *

ثانيا — التسامح والرحمة :

الاسلام دين سمح يشجع على الحرية فى التفكير والحرية فى ابداء الرأى ، ويدعو الى تبادل المودة والتراحم بين بنى البشر • والقرآن الكريم يحثنا على العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، كما يأمرنا أن نصل من قطعنا ونعطى من حرمنا ، قال تعالى :

« •• فاصفح الصفح الجميل » • (الحجر : ٨٥)

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » •

(الأعراف : ١٩٩)

« •• وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » • (النور : ٢٢)

ان هذه الصفات الخلقية التى حثنا الاسلام على التحلى بها هى المثل العليا التى تربط الانسان بأخيه الانسان • فبالتسامح والحلم تدوم الأخوة الصادقة وتقوى الروابط والصلات بين الناس • والمؤمن عزيز النفس يدرك كل الادراك متى يقابل الاساءة بالعفو ومتى يقابل الاساءة بمثلها • قال تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » • (الشورى : ٤٠)

ان الرحمة كمال فى الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الآخرين ويسعى لازالتها ، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى • هى كمال فى الطبيعة لأن تبلد الحس يهوى بالانسان من منزلته الانسانية بل ويجرده من أفضل صفاته ، وهى العاطفة النابضة بالحب والمودة والرحمة والرأفة •

والرحمة فى أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة الخالق عز وجل • فان رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت • فحيثما أشرف شعاع من علمه المحيط بكل شىء انبثق معه شعاع للرحمة الغامرة • ولذلك كان من صلاة الملائكة له سبحانه :

« ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » • (غافر : ٧)

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معانى الرحمة والكرم والفضل والعفو • وقد جاء فى الحديث القدسى : « ان رحمتى تغلب غضبى » • (رواه البخارى)

ولقد أراد الله أن يمن على العالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف أحزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويأخذ بناصر الضعيف • فأرسل « محمداً » عليه الصلاة والسلام ، وسكب فى قلبه من العلم والحلم ، وفى خلقه من الايناس والبر ، وفى طبعه من السهولة والرفق ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدراً • لذلك قال فيه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ٠٠ » • (آل عمران : ١٥٩)

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

— « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » • (رواه البخارى)

— « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » • (رواه الطبرانى)

— « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » • (رواه أحمد)

— « لا تنزع الرحمة الا من شقى » • (رواه أبو داوود)

والاسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم ، وقد قال الله لرسوله : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (الأنبياء : ١٠٧)

وسور القرآن كلها مفتتحة بـ : « **بسم الله الرحمن الرحيم** » •

وليست الرحمة حناناً لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام •• انها عاطفة ترعى هـذه الحقوق جميعاً •• فالزجر فى موضعه ، والعقاب فى مكانه ، مطلوب عندما تدعو الحاجة ، كى تستقيم الأمور ويستتب الأمن والنظام •• ان القسوة التى استنكرها الاسلام جفاف فى النفس لا يرتبط بمنطق أو عدالة • انها نزوة تتشبع من الاساءة والايذاء ، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى •• أما الرحمة فهى أثر من الجمال الالهى الباقى فى طبائع البشر يحدوهم الى البر ، ويهب عليهم فى الأزمات الخانقة ريحاً لطيفة ترطب الحياة وتنعش الصدور •

ونبه الاسلام الى أن هناك أقواماً ينبغى أن يحظوا بأضعاف من الرحمة والعناية :

— من هؤلاء ذوو الأرحام ، قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحم شجنة (قرابة مشتبكة) من الرحمن ، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله » • (رواه الترمذى)

فعلى المسلم أن يؤدى حقوق أقربائه وأن يقوى بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة •• وأجدر الناس وأولاهم بهذه الرحمة هم الوالدان ، قال تعـالى :

« **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كمـا ربيانى صـغيرا** » • (الاسراء : ٢٤)

— وممن تجب الرحمة بهم اليتامى ، فان الاحسان اليهم والبر بهم وكفالة عيشهم وصيانة حقوقهم من أزكى القربات •

فعن أبى هريرة أن رجلا شكا الى رسول الله ﷺ قسوة قلبه • فقال عليه الصلاة والسلام : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » • (رواه أحمد)

ـ وتجمل الرحمـــة مع المرضى وذوى العاهات •• فان هؤلاء المصابين من شأنهم أن يستقبلوا الحياة بوسائل وامكانات منقوصة ، تعجزهم عن المسير فى ركبها وادراك أغراضهم منهـــا ، وقد عذرهم الله تعالى فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه :

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » • (الفتح : ١٧)

* * *

ثالثاً ـ الحلم والصفح :

تتفاوت درجات النـــاس فى الثبات أمام المثيرات •• فمنهم من تستخفه التوافه فيثور بسرعة ، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقى على وضعها الأليم محتفظاً برجاحة عقله وسماحة خلقه • ومع أن للطباع الأصيلة دخـــلا كبيرا فى أنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والسماحة ، الا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة الفرد بنفسه وبين أناته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم • فالرجل العظيم حقا كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأخطائهم •

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه الى حد الجنون ، عندما لا يملكون زمام أنفسهم ، ويرون أنهم حقروا تحقيرا لا يعالجه الا سفك الدم • فلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله فانه لا يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد ، فالاهانات تسقط على تلافيفهـــا قبل أن تصل الى مرماها البعيد • وهـــذا المعنى يفسر لنا حلم « هود » عليه السلام وهو يستمع الى اجابة قومه بعدما دعاهم الى توحيد الله ، فقالوا :

« .. انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » . (الأعراف : ٦٦ — ٦٨)

والجاهلية التى عالج رسول الله ﷺ محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة : جهالة ضد العلم ، وأخرى ضد الحلم . فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون التوجيه والارشاد ، وأما الأخرى فكف ظلمها يعتمد على كبح النفس ومنع الفساد . فجاء الاسلام ليقيم أركان المجتمع على العدل ، ولن تتحقق هـذه الغاية الا اذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب . وكثير من النصائح التى أسداها الرسول للعرب تتجه الى هذا الهدف ، حتى اعتبرت مظاهر الطيش والتعـدى انفلاتا من الاسـلام وانطلاقاً من القيود التى ربط بها الجماعة ، ومن الحديث : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . (رواه مسلم)

ومن الناس من لا يسكت عنه الغضب ، فهو فى ثورة دائمـة ، وتغنيظ يطبع على وجهه العبوس . اذا مسه أحد ارتعش كالمحموم ، وأنشأ يرغى ويزبد ويلعن ويطعن . والاسلام برىء من كل هذه الخلال الكدرة . واللعن من الخصال السيئة ، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم . بل ان المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره ولو أصابه منه الأذى الشديد . وعلى قدر ما يغبط المسلم نفسه ، ويكظم غيظه ، ويملك قوله ، ويتجاوز الهفوات ، ويرثى للعثرات ، تكون منزلته عند الله . قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء » . (رواه الترمذى)

ومن الآيات الكريمة فى هـذا المجال :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .
(الأعراف : ١٩٩)

« .. وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » . (النور : ٢٢)

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . (فصلت : ٣٤)

« .. والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .
(آل عمران : ١٣٤)

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون » . (الشورى : ٣٧)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة (الذى يغلب الناس ويصرعهم) انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . (متفق عليه)

— « اذا غضب أحدكم فليسكت » . (رواه أحمد)

— « قال الله عز وجل : من ذكرنى حين يغضب ذكرته حين أغضب ، ولا أمحقه فيمن أمحق » . (رواه الديلمى)

— عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » . (متفق عليه)

— وعنها أن النبى ﷺ قال : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » . (رواه مسلم)

* * *

رابعاً — العدالة :

الاسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والسلوك ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية . انه دين الوحدة بين القوى الكونية جميعاً ، فهو دين التوحيد .. توحيد الاله ، وتوحيد الأديان جميعاً فى دين الله ، قال تعالى :

« وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .
(المؤمنون : ٥٢)

وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعات الاسلام وفرائضه ، وحدوده وتوجيهاته ، وآراؤه فى مختلف الشئون السياسية والاقتصادية

والمعاملات . وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات . وحين ندرك هـذه الفكرة الكلية فى طبيعة النظرة الاسـلامية للكون والحياة والانسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الاسلام .. فهى قبل كل شىء عدالة انسانية شاملة ، تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات ، والقيم المـادية والمعنوية والروحية . ان الحياة فى نظر الاسلام تراحم وتودد وتعاون وتكافل بين المسلمين على وجه خاص ، وبين أفراد الانسانية على وجه عام .

وعندما يضع الاسلام نظمه وتشريعاته ، ونصائحه وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات عند الانسان ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ، ولكنه يعالج الأثرة ويعالج الشح بالتوجيه وبالتشريع ، فلا يكلف الانسان الا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها ، وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم عن الانسان :

« وانه لحب الخير لشديد » . (العاديات : ٨)

« .. وأحضرت الأنفس الشح .. » . (النساء : ١٢٨)

« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمـة ربى اذن لأمسكتم خشيـة الانفاق ، وكان الانسان قتورا » . (الاسراء : ١٠٠)

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحاً للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيماً أخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى :

« .. ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. » . (الحجرات : ١٣)

« .. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات .. » . (المجادلة : ١١)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خـير عنـد ربك ثوابا وخـير أملا » (الكهف : ٤٦)

وهكذا يبدو أن الاسلام قد وضع قيماً أخرى ـ غير القيم الاقتصادية ـ يحسب حسابها ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق بين الناس .. فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضاً فيها مع تحقق العدالة الانسانية باتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود وتعطلها .

ان العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى .. العدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، أى العدالة فى الأقوال والأفعال والسلوك عامة . ويجب على المؤمن أن يقاوم الباطل وأن يناصر الحق بكل ما أوتى من قوه . وليس فى الاسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، كما لا يعرف التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى . يقول تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . (الحجرات : ١٣)

« .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

(الأنعام : ١٥٢)

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . (النحل : ٩٠)

« .. ألا لعنة الله على الظالمين » . (هود : ١٨)

« .. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » . (غافر : ١٨)

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً » .

(الكهف : ٥٩)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

ـ « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام » . (رواه الطبرانى وأحمد)

ـ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره » .

(رواه أحمد)

ـ « لعن الله من رأى مظلوماً فلم ينصره » . (رواه الديلمى)

ـ « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

ـ « اذا رأيت أمتى لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم ، فقد تودع منهم » . (رواه الترمذى)

ـ « دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجراً ، ففجوره على نفسه » (رواه أحمد)

* * *

خامساً ـ الصدق والأمانة :

ان الاستمساك بالصدق فى كل شىء ، وتحريه فى كل قضية ، والالتجاء اليه فى كل حكم .. دعامة أساسية فى خلق المسلم وصبغة ثابته فى سلوكه . وكذلك كان بناء المجتمع فى الاسلام قائماً على محاربة الظنون ، ونبذ الشائعات ، فان الحقائق وحدها هى التى يجب أن تظهر وتغلب وأن تعتمد فى اقرار العلاقات المختلفة بين الناس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » . (رواه البخارى)

وقال : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » . (رواه الترمذى)

وقد نعى القرآن على أقوام جريهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب ، فقال :

« .. ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . (النجم : ٢٣)

وقال : **« وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .** (النجم : ٢٨)

ولقد كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها ، فاذا أساء أحد السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطىء ، بدا بعمله هذا ـ كالأجرب بين الأصحاء ، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من

علته • وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ودقة الأداء وضبط الكلام •• أما الكذب والنفاق والتدليس والافتراء ، فهى أمارات انقطاع الصلة بالدين ، أو هى اتصال بالدين على أسلوب المدلسين والمفترين ، أى أسلوب الكذابين فى مخالفة الواقع •

ان الكذب رذيلة محضة تنبىء عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سلوك ينشىء الشر ويندفع الى الاثم •• هناك رذائل يلتاث بها الانسان ، تشبه الامراض التى تعرض للبدن ، بل هى حقاً أمراض اجتماعية أو خلقية ، ولا يصح منها الا بعد علاج طويل ، كالخوف الذى يصاب به العيابون ، أو الحرص الذى تنقبض به الأيدى • وقد تكون هناك أعذار لمن يشعرون بوسواس الحرص أو الخوف عندما يواجهون مواقف التضحية والفداء •• ولكنه لا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خلقاً ويعيشون به على خديعة الناس •

قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها ، الا الخيانة والكذب » • (رواه أحمد)

وكلما اتسع نطاق الضرر اثر كذبة يشيعها أفاك جرىء كان الوزر عند الله أعظم • وهذا الضرب من الافتراء فاحش فى حقيقته ، وخيم فى نتيجته ، ويدخل فى نطاق هذا الافتراء ، سائر ما ابتدعه الجهال ، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها ، عدها العوام ديناً ، وما هى بدين ، ولكنها لهو ولعب •

والمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح ، حاسباً أن مجال اللهو لا خطر فيه على أخبار أو اختلاف •• ولكن الاسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك الا فى حدود الصدق المحض ، فان فى الحلال مندوحة عن الحرام ، وفى الحق غناء عن الباطل • والمشاهد أن الناس يطلقون العنان لأخيلتهم فى تلفيق الأضاحيك ولا يحسون حرجاً فى ادارة أحاديث مفتراة على ألسنة خصومهم أو أصدقائهم ليتندروا بها أو يسخروا منها • وقد حرم الدين هذا المسلك تحريماً تاماً ، اذ الحق أن اللهو بالكذب ، كثيراً ما ينتهى الى أحزان وعداوات •

قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له » . (رواه الترمذى)

والاسلام يستلزم من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تصان به حقوق الله وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعى التفريط والاهمال ، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون « أميناً » .. والأمانة واسعة الدلالة ، وهى ترمز الى معان شتى مناطها جميعاً شعور الفرد بتبعته فى كل أمر يوكل اليه ، وادراكه الأكيد بأنه مسئول أمام ربه ، على النحو الذى فصله الحديث النبوى الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » .
(رواه البخارى)

وعن أنس قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ الا قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » . (رواه أحمد)

ومن معانى الأمانة وضع كل شىء فى المكان الجدير به واللائق له ، فلا يسند منصب الا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة الا بالرجل الذى ترفعه كفايته اليها . فالأمانة تقضى بأن تختار للأعمال أحسن الناس قياماً بها ، فاذا ملنا عنه لغيره — لهوى أو مجاملة أو قرابة — فقد ارتكبنا بذلك خيانة فادحة . قال رسول الله ﷺ : « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . (رواه الحاكم)

وجاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة . فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » .
(رواه البخارى)

ومن معانى الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يبذل جهده فى اتمامه على خير وجه . فهذه أمانة

يمجدها الاسلام .. أن يخلص الشخص لعمله وأن يعنى باجادته ، وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه .

ومن الأمانة ألا يستغل الشخص منصبه الذى عين فيه ، للحصـــول على منفعة لنفسه أو لذوى قرباه ، فان التشبع من المال العام جريمة . وقد شدد الاسلام فى ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ ، كما شدد فى رفض المكاسب غير المشروعة . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنـــده أجر عظيم » . (الأنفال : ٢٧ — ٢٨)

ومن الآيات القرآنية في مجال الصدق والأمانة :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »
(التوبة : ١١٩)

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم .. » . (الأحزاب : ٢٤)

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها .. »
(النساء : ٥٨)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . (المؤمنون : ٨)

« فان أمن بعضكم بعضـــا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه .. » (البقرة : ٢٨٣)

ومن الحديث النبوى الشريف : « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . (رواه أحمد وأبو داوود)

— « المستشار مؤتمن » . (رواه الطبرانى)

* * *

سادساً — الوفاء والاخلاص :

اذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه ، واذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه . ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، فيعرف

بين الناس بأن كلمته موثق غليظ لا خوف من نقضها • والوفاء بالعهد يحتاج الى عنصرين ، اذا اكتملا فى النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، وهما قوة الذاكرة ، وقوة العزيمة •• فضعف الذاكرة ، وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء بالعهد • والانسان لتجدد الأحداث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه — يفعل الزمان فعله العجيب فى نفسه ، فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً فى نفسه لا يكاد يظهر • ولهذا فانه يفتقر الى مذكر دائم ليتغلب على النسيان •• فالذكر المطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء • قال تعالى : **« •• وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »** • (الأنعام : ١٥٢)

فاذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه ، يجب أن ينضم الى هذا الذكر عزم مشدد على تنفيذه ، عزم يذلل الأهواء الجامحة ، ويهون الصعاب العارضة ، بحيث يمضى فى سبيل الوفاء بما التزم به مهما تجشم من مشاق وبذل من تضحيات •• وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً فى هذا المضمار ، فان ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال أو الراحة أو الأحبة أو الحياة • وعندما يستجمع الانسان الذهن الواعى والقلب الكبير ، فهو أهل للوفاء •

والعهود التى يرتبط المسلم بها درجات ، فأعلاها مكانة وأقدسها ، العهد الأعظم الذى بين العبد وخالقه •• وأن الله خلق الانسان بقدرته ، ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يعترف بها ، وألا تشرد به المغويات ، فيجهلها أو يجحدها • قال تعالى :

« ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين • وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم » •

(يس : ٦٠ — ٦١)

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الشخص ماضيه لينتفع به فى حاضره ومستقبله ، فاذا كان فى الماضى معسراً ثم أغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فلا يجوز له أن يفصل بين أمسه ويومه بجدار سميك ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً ، ويبنى على غروره بحاضره مسلكاً كله فظاظة وجحود •

فهذا نوع من الغدر ينتهى بصاحبه الى النفاق الممقوت •

والاسلام يوصى باحترام العقود التى تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها ، ويأمر بانفاذ الشروط التى تتضمنها • قال تعالى :

« •• وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » •

(الاسراء : ٣٤)

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » •

(النحل : ٩١)

ان صلاح النية واخلاص القلب لرب العالمين ، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحت ، فيجعلانه عبادة متقبلة • وان خبث الطوية ، يهبط بالطاعات المحضة ، فيقلبها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها شيئاً ، بعد التعب فى أدائها ، الا الفشل والخسارة • قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو انسان ، الا كان له به صدقة » • (رواه مسلم)

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته ، فان حركاته وسكناته تحتسب خطوات الى مرضاة الله • وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو اليه ، لقلة ماله أو لضعف صحته ، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الاصلاح الى مراتب المصلحين ، والراغب فى الجهاد الى مراتب المجاهدين ، لأن بعد همتهم أرجح لديه من عجز وسائلهم •

حدث فى احدى الغزوات أن تقدم الى رسول الله رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجودوا بأنفسهم فى سبيل الله ، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفى حلوقهم غصة لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قوله عز وجل :

« ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » •

(التوبة : ٩٢)

ولقد نوه النبى ﷺ بايمان أولئك القوم واخلاصهم ، فقال للجيش السائر : « ان أقواماً خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعباً ولا واديا الا وهم معنا ، حبسهم العذر » . (رواه البخارى)

* * *

سابعاً ــ الصبر :

قال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » .

(رواه مسلم)

اذا استحكمت الأزمات وتعقدت ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولا بد أن يبنى عليه آماله وأعماله .. فيجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بعقل متفتح وقلب لم تعلق به ريبة . كما ينبغى أن يظل موفور الثقة بادى الثبات ، ويبقى موقناً بأن بوادر الصفو لا بد آتية ، وأن من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين . وقد أكد الله سبحانه أن ابتلاء الناس لا محيص عنه ، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة ، فلا تذهلهم المفاجآت ، فقال تعالى : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** » . (محمد : ٣١)

ولا شك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الانسان ، وأدنى الى احكام شئونه ، قال تعالى : « .. **وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور** » . (آل عمران : ١٨٦)

والصبر يعتمد على حقيقتين أساسيتين : الأولى ، تتعلق بطبيعة الحياة الدنيا .. فان الله جعلها دار تمحيص وامتحان ، والفترة التى يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات ، يخرج من امتحان ليدخل فى امتحان آخر قد يغاير الأول مغايرة تامة . كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ، ربما انتهت بمصارعهم ، وليس أمام الفرد الا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر ، وما دامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه .

والحقيقة الثانية تتعلق بطبيعة الايمان .. فالايمان صلة بين الانسان وبين الخالق سبحانه ، واذا كانت صلات المودة والصداقة بين الناس لا يعتد بها ولا ينوه بشأنها الا اذا تأكدت على مر الأيام واختلاف الحوادث ، فكذلك الايمان ، لا بد أن تخضع صلته بالابتلاء الذى يمحصها ، فاما كشف عن طيبها واما كشف عن زيفها .
قال الله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .
(العنكبوت : ٢ — ٣)

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر ، ومن أجلهما يطالب الدين به . ولكن الانسان — ومن عادته تجاهل الحقائق — يدهش للصعاب اذا لاقته ، ويتبرم بالآلام اذا مسته ، ويقوم له من طبعه الهلوع ما يبغض له الصبر ويجعله فى حلقه كريه المذاق . فاذا أحرجه الأمر ، أو نزلت به كارثة ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر . وأولى بالمسلم أن يدرب نفسه على طول الانتظار . قال تعالى : **« خلق الانسان من عجل ، سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »** .
(الأنبياء : ٣٧)

وفى الحديث النبوى الكريم : « اذا أحب الله قوماً ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .
(رواه الترمذى)

والصبر أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل . .

فأما الصبر على الطاعة فأساسه أن أركان الاسلام تحتاج فى القيام بها والمداومة عليها الى تحمل ومعاناة .. فالصلاة مثلا ، فريضة متكررة يقوم بها المسلم فى مواعيد محددة ، ويقول الله فيها :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها .. » . (طه : ١٣٢)

« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين» .
(البقرة : ٤٥)

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد أقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما :

« والعصر . ان الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

والصبر على المعاصى ، هو عنصر المقاومة للمغريات التى تنبت فى طريق الناس وتبين لهم اقتراف المآثم المحظورة . قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .
(رواه مسلم)

والادبار عن الشهوات لا يتأتى الا لصبور ، والصبر هنا أثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم الى ما يرضى الله . قال تعالى :

« .. ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » .
(الأعراف : ١٢٦)

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن فى نفسه أو ماله أو أهله أو مكانته . وتلك كلها أعراض متوقعة ، وهيهات أن تخلو الحياة منها . على أن المسلم اذا احتمى بالله ولجأ اليه صمد أمام الأحداث . ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام تمسك بدينه فى الأزمات ولا يتزعزع يقينه لدى الشدائد . قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . (البقرة : ١٥٥ — ١٥٧)

* * *

ثامنا — الحياء :

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الانسان ، فهو يكشف عن قيمة ايمانه ومقدار أدبه . وعندما ترى الشخص يتحرج من فعل مالا ينبغى ،

أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه اذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حى الضمير ، نقى المعدن ، طيب العنصر • واذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور ، لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحياء وازع يعصمه من اقتراف الآثام وارتكاب الخطايا •

وقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هـذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل • قال رسول الله ﷺ : « ان لكل دين خلقاً ، وخلق الاسلام الحياء » • (رواه مالك)

وكان النبى ﷺ أرق الناس طبعاً ، وأنبلهم سـيرة ، وأعمقهم شعوراً بالواجب ، ونفوراً من الحرام • عن أبى سعيد الخدرى : « كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا رأى شـيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه » • (متفق عليه)

قال رسول الله ﷺ : « ان الله عز وجل اذا أراد أن يهلك عبداً نزع منـه الحياء • فاذا نزع منـه الحياء لم تلقه الا مقيتاً ممقتـاً (مبغضاً) • فاذا لم تلقه الا ممقتاً نزعت منه الأمانة • فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائناً مخوناً ، نزعت منه الرحمة • فاذا نزعت منه الرحمة لم تلقه الا رجيماً ملعناً • فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة (رباط) الاسلام » (رواه ابن ماجه)

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس وتتبعه لأطوارها ، وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة الى أخرى أشد نكراً •• فان الشخص اذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حساباً ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مد يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه • ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلباً يعطف عليه ، بل انه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها •

وللحياء مواضع يستحب فيها •• فالحياء فى الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العيب ، فان من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غـير عابىء بمواقعها وآثارها •

قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » (رواه أحمد)

ومن الحياء فى الكلام أن يقتصد المسلم فى تحدثه بالمجالس ، فان بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث فى المحافل والاجتماعات ، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كره الاسلام هذا الصنف من الناس . وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء المتشدقين لا تخلو من المبالغة ، لعلل خلقية كان الحياء علاجها الشافى لو أنهم استمسكوا به .

ومن الحياء أن يخجل الانسان من أن يؤثر عنه سوء ، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب بعيدة عن الاشاعات السيئة .. فان الرجل الذى يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير ، والرجل الذى يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيه بقية من شر . وينبغى على الانسان أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، واذا كره أن يراه الناس على نقيصه فليكره أن يرى نفسه على مثلها . ومن ثم كان لزاماً على المسلم أن يبتعد عن الدنايا والنقائص ، ما ظهر منها وما بطن ، سواء خلا بنفسه أو برز الى الناس .

ان الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النبل فى كل عمل يشوبه ، قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش فى شىء الا شانه ، وما كان الحياء فى شىء الا زانه » . (رواه الترمذى)

ومن حياء الانسان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى كل ذى فضل فضله . فللغلام مع من يكبرونه ، وللطالب مع من يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والاحترام والتقديم ، فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته ، ولا أن يسبقهم فى خطوه . وفى الحديث : « تواضعوا لمن تعلمون منه » . (رواه الطبرانى)

— « اللهم لا يدركنى زمان لا يتبع فيه العليم ، ولا يستحيا فيه الحليم » . (رواه أحمد)

والحياء فى أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عز جل : فنحن

نطعم من خيره ونتنفس فى جوه ، وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه ، ان حق الله على عباده عظيم ، ولو قدروه حق قدره لسارعوا الى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم ، ولباعدوا عن السيئات خجلا من مقابلة الخير بالجحود .

عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : انا نستحى من الله يارسول الله — والحمد لله — قال : ليس ذلك .. الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس ما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » . (رواه الترمذى)

وهذه العظة تستوعب كثيراً من آداب الاسلام ومناهج الفضيلة .. فان على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض فى باطل وبصره أن يرمق عورة ، وأذنه أن تسترق سراً . وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام ، ويقنعها بالطيب الميسور . ثم عليه أن يصرف أوقاته فى العمل الصالح ومرضاة الله ، وايثار ما لديه من ثواب ، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة .. فان فعل ذلك عن شعور ويقين بأن الله يرقبه ، ونفور من اقتراف تفريط فى جنب الله ، فقد استحيا من الله حق الحياء .

والحياء بهذا الشمول هو الدين الخالص كله ، فاذا أطلق على طائفة من الأعمال الجميلة فهو جزء من الايمان .

* * *

تاسعا — الاخاء :

ليست هناك دواعى معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتاً متناكرين ، بل ان الدواعى على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض الآخر ، وتمهد لهم مجتمعاً متكافلا تسوده المحبة ، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض . والله عز وجل رد أسباب الناس وأجناسهم الى أبوين اثنين ، ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق . قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .
(الحجرات : ١٣)

فالتعارف — لا التنافر — أساس العلاقات بين البشر . وكل رابطة توطد هـذا التعارف وتريح من طريقه العوائق فهى رابطة يجب تدعيمها ، والانتفاع بخصائصها . وليس الاسلام مجرد رابطة تجمع بين عدد من الناس فحسب ، ولكنه جملة الحقائق التى تقر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم ، ثم بين الناس أجمعين . ان الأثرة (الأنانية) آفـة الانسان ، اذا سيطرت نزعتها على شخص محقت خيره ونمت شره ، وحصرته فى نطاق ضيق لا يعرف فيه الا شخصه ، ويصبح متمركزاً حول ذاته ، ولا يهمه شىء من شئون الآخرين . وقد حارب الاسلام هـذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة ، وأفهم الانسان أن الحياة ليست له وحده ، وأنها لا تصلح به وجده . فليعلم أن هناك أناساً مثله ، ان ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده . ان هذا التذكر يخلع المرء من أثرته ، ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه .

ومن حق أخيك عليك أن تكره ضرره ، وأن تبادر الى دفعه عنه ، فان مسه أدى شاركته الألم ، وأحسست معه بالحزن . قال رسول الله ﷺ : « مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . (رواه البخارى)

ـ « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » .
(رواه البخارى ومسلم)

ـ « ان الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » . (رواه مسلم)

— « من استعاذ منكم بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفاً فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أن قد كافأتموه » .

(رواه أحمد ، وأبو داوود ، والنسائي)

— « حق الجار ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر أقرضته ، وان أعوز سترته ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذيه بريح قدرك الا أن تغرف له منها » .

(رواه الطبراني)

— « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

(متفق عليه)

ومن حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن اخوانه ظهير له فى السراء والضراء وأنه لا يتحرك وحده فى خضم الحياة ، بل ان قوى المؤمنين تسانده وتشد أزره فى مسيرته . ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة ، فهى نعمة التجانس الروحى والمادى معاً . قال تعالى :

« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً .. » . (آل عمران : ١٠٣)

ورهب الاسلام من يلعب بهم الشيطان ويغريهم بالتطاول على اخوانهم طلبا للاستعلاء فى الأرض ، فبين أن هؤلاء المتطاولين سوف يتضاءلون يوم القيامة ، وعلى قدر ما انتفخوا ينكمشون حتى يصيروا هباء . وفى الحديث : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور رجال يغشاهم الذل من كل مكان » .

(رواه الترمذى)

قال تعالى : **« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »** . (غافر : ٦٠)

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض » .

(الأعراف : ١٤٦)

« قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » . (الأعراف : ١٣)

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » • (رواه مسلم)

ومما يمزق أواصر الأخوة التهكم والازدراء والسخرية من الآخرين • ان هذه الأخلاق تنشأ عن جهالة وغفلة • فان من حق الضعيف أن يجد المساندة دون النيل منه ، ومن حق الحائر القلق الملهوف أن يرشد الى الطريق القويم لا التهكم عليه • واذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة فآخر ما يتوقع من أخيه المسلم أن يجعل ذلك مثار تندره واستهزائه • قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ..** » • (الحجرات : ١١)

ومما اتخذه الاسلام لصيانة الأخوة ومحو الفروق المصطنعة ، توكيد التكافؤ فى الدم والتساوى فى الحق ، واشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل • فلا يفضل أحد أخاه فى الاسلام الا بالتقوى والعمل الصالح • قال رسول الله ﷺ : « اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى : ألا انى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً • فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم الا أن تقولوا : فلان ابن فلان • فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم » • (رواه البيهقى)

وهذا تأكيد لقوله تعالى :

« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون • فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون • ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » •

(المؤمنون : ١٠١ — ١٠٣)

* * *

عاشراً — الاتحاد والتعاون :

تقوم شرائع الاسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا يتجزأ ولا ينفصم من كيان الأمة ، وعضواً موصولا بجسمها لا ينفك عنها ، فهو — طوعا أو كرهاً — يأخذ نصيبه مما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو

وشعور • وقد جاء الخطاب الالهى مقرا هذا الوضع ، فلم يتجه للفرد وحده بالأمر والنهى ، انما تناول الجماعة كلها بالتأديب والارشاد • قال تعـالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده •• » •

(الحج ٧٧ — ٧٨)

فاذا وقف المسلم بين يدى ربه ليتضرع اليه ويناجيه ، لم تجر العبادة على لسانه كعبد منفصل عن اخوانه ، بل كطرف من مجموع متسق مرتبط يقول : **« اياك نعبد واياك نستعين »** • (الفاتحة : ٥)

ثم يسـأل الله من خيره وهداه ، فلا يختص نفسـه بالدعاء ، بل يطلب رحمة الله له ولغيره ، فيقول : **« اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم »** • (الفاتحة : ٦ — ٧)

ان الله عز وجل لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا •• لقد شرع لهم ديناً واحدا ، وأرسل أنبياءه تترى ليقودوا الناس كافة فى طريق واحد ، وحرم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين وأن يتفرقوا حوله •

بيد أن الناس فى غمرة الحياة واتباع الشهوات تناسوا هذه الوصية الكريمة ، وتنكروا لهذا التراث العظيم ، فانقسم الناس أحزاباً ، وصار كل حزب يكيد للآخر ويتربص به • قال تعالى :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم • وان هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون • فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون • فذرهم فى غمرتهم حتى حين » •

(المؤمنون : ٥١ — ٥٤)

وبين الله عز وجل أن اتباع الهوى ومتابعة البغى هو سر هـذا الافتراق الواسع •• والحق أن العلم عندما ينفصل عن الخلق ، ويفارقـه الاخلاص ، يمسى وبالا على أهله وعلى الناس • وقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع ••

وقال تعـالى : « **وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العـلم بغيا بينهم ..** » . (الشورى : ١٤)

فالنظر الى ضراوة العلم عندما يفقد الاخلاص لله والرفق بالعباد ، كيف يثير الفرقة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .. ان اختلاف الأفهام وتضارب الآراء ليس بمستغرب فى الحياة ، ولكن ليس هـذا سبب التقاطع والشقاق . انما يعود سبب الشقاق الى اسهام عوامل أخرى وانضمامها ، تستغل تباين الأفطار والآراء للتنفيس عن أهواء باطنة . ومن ثم ينقلب البحث عن الحقيقة الى ضرب من العناد لا صلة له بالعلم البتة . ولمـا كان هـذا الاختلاف المريب مفسداً لدين الله ودنيا الناس فقد اعتبره الاسلام انفصالا عنه . قال تعالى فى كتابه الكريم محذراً المسلمين من الخلاف فى الدين والتفرق فى فهمه شـيعاً متناحرة كما فعل الأولون :

« **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** » .
(آل عمران : ١٠٥ — ١٠٧)

ان ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الاسلام ، وألزم صفات المسلمين المخلصين . ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقـاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها . ولئن كانت كلمة التوحيد باب الاسـلام ، فان توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والابقاء على رسالته ، والضمان الأول للقاء الله سبحانه وتعالى بوجه مشرق وصفحة نقية .

ولكى يمتزج المسلم بالمجتمع الذى يحيا فيه شرع الله الجماعـة للصلوات اليومية ورغب فى حضورها وتكثير الخطو اليها ، ثم ألزم أهل الحى أو العشيرة أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة . وبعد هذا دعا الى اجتماع أكبر فى صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء خارج

البلدة ، وأمر الرجال والنساء بالمشاركة فيه اتماما للنفع وزيادة فى الخير .. ثم أذن الى حشد أضخم يضم الشتات من المشرق الى المغرب . ففرض الحج ، وجعل له مكاناً معلوماً وزمانا محدوداً ، حتى يجعل اللقاء بين أجناس المسلمين أمراً محتوماً .

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة ، وكان فى حله وترحاله يوصى بالتجمع والاتحاد ، قال عليه الصلاة والسلام : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم » .

(رواه مالك)

— « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

(رواه البخارى ومسلم)

وقال تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم** » .

(التوبة : ٧١)

ان الناس اذا لم يجمعهم الحق شعبهم وشتتهم الباطل ، واذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان ، واذا لم يستوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا . لذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة وصفة من لا ايمان لهم . قال رسول الله ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(رواه الترمذى)

ان الشقاق يضعف الأمم القوية ، ويميت الأمم الضعيفة ، ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين — بعد انتصارهم فى غزوة « بدر » — أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا أمرهم . ولما تطلعت النفوس للغنائم ، تشتهى حظها وتتنافس على اقتسامها نزل قوله تعالى :

« **يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين** » .

(الأنفال : ١)

ثم أفهمهم أن الاتحاد فى العمل لله هو طريق النصر المحقق ، قال تعالى : « **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ..** » . (الأنفال : ٤٦)

وحذرهم من أن يسلكوا فى التكالب على الدنيا مسلك الذين لا يرجون عند الله ثواباً ، فقال تعالى : « **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط** » . (الأنفال : ٤٧)

ثم تلقى المسلمون فى « أحد » لطمة موجعة أفقدتهم عدداً لا يستهان به من أبطالهم ، وردتهم الى المدينة وهم يعانون الأمرين من خزى الهزيمة وشماتة الكافرين . ولم ذلك ؟ مع أن ايمانهم لم يتزعزع .. ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله . قال تعالى :

« **ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ..** » .

(آل عمران : ١٥٢)

وكان ذلك يعود الى انحلال عرى المسلمين وتفرقهم .

* * *